٣٤
لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة السادسة - العدد الثاني عشر
(صفر- رجب ١٤٤٧)

السفراء الأربعة و دورهم في قيادة الشيعة في عصر الغيبة الصغرى

استاذ حسن حسين زاده شانه چى

الملخص: يتناول هذا النص دراسة تاريخية وتحليلية شاملة للأوضاع السياسية، الاجتماعية، والثقافية للشيعة الإمامية خلال فترة «الغيبة الصغرى». ويستعرض كيفية إدارة شؤون الطائفة الشيعية عبر نظام «النيابة الخاصة»، مسلطاً الضوء على التحديات التي واجهت السفراء الأربعة. كما يتطرق إلى دور الأئمة والسفراء في حماية الشيعة من الخلافة العباسية عبر التقية، ومحاربة التيارات المنحرفة والمدعين الكاذبين، بالإضافة إلى الإجراءات الثقافية والعقائدية التي اتخذها علماء الشيعة لحفظ العقيدة في ظل غياب الإمام المعصوم.

الكلمات المفتاحية: الغيبة الصغرى، الإمام الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه الشريف، السفراء الأربعة، نظام الوكالة، الخلافة العباسية، التقية، الغلاة، المدعون الكاذبون.

سفراء الإمام

كان نظام الوكالة متداولاً لدى الشيعة لتجاوز عقبات التشتت الجغرافي والقيود الأمنية العباسية. ففي القرن الثاني الهجري، مع اتساع الرقعة الشيعية، دعت الحاجة لتعيين ممثلين عن المدن لتوصيل الأموال (الخمس والزكاة) وحل المسائل الدينية. نظّم الإمام الصادق عليه السلام هذا النظام لحماية الشيعة من بطش الخليفة المنصور، وازداد نشاطه سراً في عهد الإمام الكاظم عليه السلام.

مع إجبار الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام على الإقامة في سامراء، تقلص التواصل المباشر للتمهيد لعصر الغيبة. لذا، ركّز الإمام الهادي عليه السلام طوال إمامته (٢٢٠-٢٥٤ هـ) على تقوية مؤسسة الوكالة. ومع الغيبة الصغرى، تطور النظام إلى «السفارة الخاصة»، حيث أدار الإمام شؤون الطائفة عبر «السفير».

كان من أهمّ واجبات السّفراء إخفاء اسم الإمام ومكانه لإحباط مساعي السلطة. نهى السفير الأول (عثمان بن سعيد) أحد الشيعة أن يبحثوا عن هذا الأمر، لأنه في نظر هؤلاء القوم قد انقطع هذا النسل. (الطوسي، الغيبة، ص ١٤٧). بالمقابل، أثبت السفراء وجود الإمام للموثوقين لدفع الحيرة. وكان نشاط السفراء والوكلاء والفقهاء يخضع لإشراف الإمام الدقيق لردع الانحرافات. فحين اعتنق أحد فقهاء الشيعة مذهب القرامطة، قطع الإمام مراسلته (الطبرسي، إعلام الورى، ج ٢، ص ٢٦٣). ولما شك أحدهم في الوكيل حاجز بن يزيد، طمأنه الإمام برسالة (الكليني، الكافي، ج ١، ص ٤٣٧).

كما اتخذ الإمام تدابير أمنية وقائية. ينقل الحسين بن الحسن العلوي أن الوزير عبيد الله بن سليمان أرسل جواسيس بأموال للإيقاع بالوكلاء، لكن الإمام أمرهم مسبقاً بعدم استلام أي مال والإنكار التام، ففشلت خطة الوزير (الكليني، الكافي، ج ١، ص ٤٤٠ والطبرسي، إعلام الورى، ج ٢، ص ٢٦٧).

. وفي حادثة أخرى، نهى الإمام عن زيارة مقابر قريش (الكاظمية) وكربلاء، ليتبين لاحقاً أن الخليفة أمر باعتقال الزوار (الكليني، الكافي، ج ١، ص ٤٤١ والمفيد، الإرشاد، ج ٢، ص٣٦٧)

١- السفير الأول وأحداث عصره (٢٦٠ - حوالي ٢٦٧ هـ)

عثمان بن سعيد العمري، المُلقب بـ«السمّان» (لعمله في بيع السمن بسامرّاء تغطيةً لنشاطه) كان موضع ثقة الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام (الطوسي، الغيبة، ص ٢١٥ و ٢١٦ و ٢٣٠). نصّ الإمام العسكري عليه السلام على نيابته أمام أربعين من ثقاته، طالباً منهم طاعته في الغيبة (الطوسي، الغيبة، ص ٢٣١ والصدوق، كمال الدين، ص ٤٣٥). بعد رحيل الإمام العسكري عليه السلام، تولّى عثمان ظاهرياً مراسم دفنه (الطوسي، الغيبة، ص ٢١٩).

واجه عثمان تحدّي تفتيش الخليفة المعتمد لمنزل الإمام العسكري بحثاً عن وريثه (الكليني، الكافي، ص ٥٠٥؛ الصدوق، كمال الدين، ص ٤١-٤٢؛ الطوسي، الغيبة، ص ١٣١). التزام عثمان بالتقية جعل السلطة توقن بانقطاع نسل الإمام، مما خفّف الضغط، فانتقل إلى بغداد للعمل بحرية أكبر. (الطوسي، الغيبة، ص ١٥٧-١٥٨)

التحدي الثاني كان «جعفراً»، الذي حذّر الإمام الهادي من انحرافه مشبهاً إياه بابن نوح في قوله تعالى: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) [هود: ٤٦] (الصدر، تاريخ الغيبة الصغرى، ص ٢٤٤-٢٤٥). حاول جعفر الاستيلاء على الإمامة، لكن الإمام المهدي صلوات الله عليه ظهر فجأة وأزاحه عن الصلاة على جثمان والده (الصدوق، كمال الدين، ص ٤٧٥؛ المفيد، الإرشاد، ص ٣٢٠). ورغم محاولة جعفر رشوة الوزير العباسي وتحريضه للسلطة على تفتيش منزل الإمام مجدداً (الطوسي، الغيبة، ص ١٥٨)، لم يتبعه سوى ثلة من الطامعين والفطحية، لفساده الأخلاقي الواضح.

أدار العمري السفارة سرّاً في بغداد (حي الكرخ)، وكان الشيعة يمتحنون الوكلاء قبل تسليمهم الحقوق الشرعية، كما حدث مع الحسن بن النضر (الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤٥٤؛ الطوسي، الغيبة، ص ٩-٣٦٨). وفي عهده، تصدى الإمام للمدعين الكاذبين كأبي محمد الحسن الشريعي وعلي بن أحمد الطربائي والحسن بن محمد بن بابا، وفضحهم بالتوقيعات (الطوسي، الغيبة، ص ٢٥٨؛ اختيار معرفة الرجال، ص ٥٢١). توفي عثمان قبل ٢٦٧ هـ ودُفن ببغداد (الطوسي، الغيبة، ص ٢٣٢).

٢- السفير الثاني وأحداث عصره (حوالي ٢٦٧ - ٣٠٥هـ)

تولّى أبو جعفر محمد بن عثمان السفارة بوصية والده وتأييد الأئمة عليهم السلام. وصله توقيع يعزّيه بوالده ويثبته في مقامه (الصدوق، كمال الدين، ص ٥١٠ و ٤٣٢؛ الطوسي، الغيبة، ص ٢٣٩). كانت فترة نيابته الأطول، عاصر فيها أربعة خلفاء. في عهد المعتمد، استغل انشغال السلطة بتمرد الزنج والصفاريين لتنظيم الشيعة. ولكنه شدّد على التقية، وورد في توقيع: «ملعون ملعون من سمّاني في محفل من الناس» (الصدوق، كمال الدين، ص ٤٨٣؛ ص ٤٨٢؛ ص ٤٤٢). ومع ذلك، أثبت وجود الإمام للموثوقين مصرّحاً برؤيته في الحجّ متضرعاً عند الكعبة بإنجاز وعد الله إياه صدوق، كمال الدين، ص ٤٣٥؛ ص ٤٤٠).

عانى السفير الثاني من مدعي النيابة، مثل:

*** أحمد بن هلال العبرتائي:**

والتحذير من الصوفي المتصنع وكيل قديم أنكر النيابة، فصدر توقيع بلعنه (الصدوق، كمال الدين، ص ٤٨٩؛ الطوسي، اختيار معرفة الرجال، ص ٥٣٦؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٨٩).

*** محمد بن علي بن بلال:**

احتفظ بالأموال لنفسه، فنظم له السفير لقاءً مع الإمام أمره فيه بالتسليم، ثم ناظره وأفحمه (البرقي، رجال، ص ٥٧؛ الطوسي، الغيبة، ص ٥٧٩؛ ص ٢٦؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٨٩).

*** محمد بن نُصَير النميري:**

ادعى البابية، فلعنه السفير وطرده. اعتقد بالتناسخ والحلول وإلوهية الإمام العسكري، وأسس «النصيرية» التي تفرعت لاحقاً (الطوسي، الغيبة، ص ٢٥٩؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٨٩؛ النوبختي، فرق الشيعة، ص ١٣٥-١٣٦).

تعقدت الأوضاع بثورات الإسماعيلية والقرامطة والدولة الزيدية في طبرستان، مما أثار شكوك البلاط ضد الشيعة الاثني عشرية وتعرضت المراقد للتخريب (الطوسي، تهذيب

الأحكام، ج ٦، ص ١١١). أنقذ الإمام وكلاءه من فخ الوزير عبيد الله بن سليمان (الكليني، الكافي، ج ١، ص ٥٢٥ والطبرسي، إعلام الورى، ج ٢، ص ٢٦٦) وفي عهد الخليفة القاسي المعتضد، أُرسل جنود لقتل مَن بمنزل الإمام العسكري، لكنهم فشلوا (المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٦٦٣؛ ص ٦٨٣ والكليني، الكافي، ج ١، ص ٥٢٥؛ الطوسي، الغيبة، ص ١٦٠).

للفصل بين الشيعة والقرامطة، لعن الإمام أبو الخطاب وأتباعه (النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٨ والصدوق، كمال الدين، ص ٤٨٥). وألف العلماء كتباً ضد القرامطة، وأخرى لترسيخ عقيدة الغيبة (الطوسي، الفهرست، ص ٣٢٦). كما استُخدمت «الأدعية المأثورة» (كالدعاء الرجبي ودعاء زمن الغيبة) لتثبيت العقيدة وتنزيه الأئمة عن الغلو (الشيرازي، كلمة الإمام المهدي، ص ٢٥٩). توفي محمد بن عثمان سنة ٣٠٥ هـ (الصدوق، كمال الدين، ص ٥١٢).

٣- السفير الثالث وأحداث عصره (٣٠٥-٣٢٦ هـ)

تولّى الحسين بن روح النوبختي السفارة بوصية سلفه، وقَبِله الجميع (الطوسي، الغيبة، ص ٢٣٨؛ الصدوق، كمال الدين، ص ٥٠٣). كان سياسياً محنكاً ذا نفوذ في البلاط، واستفاد من وزراء شيعة (كآل فرات) لتسيير أمور الطائفة (إقبال، عائلة نوبختي، ص ٢١٩). ورغم نفوذه، بالغ في التقية متجنباً المناظرات وطارداً خادمه الذي شتم معاوية (الطوسي، الغيبة، ص ٢٣٩؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٦٨٨).

بسبب الصراعات بين آل فرات (الشيعة) وآل الجراح (السنة)، اتُهم ابن فرات بدعم القرامطة وقُتل، وسُجن ابن روح خمس سنوات (٣١٢- ٣١٧هـ). أدار السفارة من سجنه، وبعد الإفراج عنه استعاد مكانته (الطوسي، الغيبة، ص ٢٠٠).

في غيابه بالسجن، انحرف أحد كبار فقهائه، محمد بن علي الشلمغاني، وادعى النيابة وروج للحلول. فأصدر ابن روح من سجنه توقيعاً بارتداده ولعنه (الطوسي، الغيبة، ص ٤١٠؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٨٩). وبعد الإفراج عنه، ضيق الخناق عليه،

فهرب الشلمغاني للموصل، إلى أن قُبض عليه وأُعدم في عهد الخليفة «القاهر» عام ٣٢٣ هـ (ابن الأثير، الكامل، ص ١٠٣). (كذلك ادعى الحسين بن منصور الحلاج الوكالة ثم الحلول، فكفّره العلماء وأُعدم. القرطبي، صلة تاريخ الطبري، ص ٦٠-٧٤) ورغم استمرار الشلمغانية سراً، استقر المجتمع الشيعي حتى وفاة ابن روح عام ٣٢٦ هـ (الطوسي، الغيبة، ص ٢٥٢).

٤- السفير الرابع وأحداث عصره (٣٢٦-٣٢٩ ه)

تولّى أبو الحسن علي بن محمد السمري السفارة بتعيين صريح. كان من عائلة شيعية عريقة خدمت الأئمة ودعمتهم مالياً وعلمياً (المسعودي، إثبات الوصية، ص ٢٤٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٣). لذا لم يواجه معارضة، وشهدت فترة نيابته القصيرة (٣ سنوات) استقراراً والتفافاً تاماً من الشيعة.

توفي السمري في النصف من شعبان عام ٣٢٩ هـ (الطوسي، الغيبة، ص ٢٥٧). وقبل وفاته بأسبوع، استلم توقيعاً من الإمام يعزيه فيه بنفسه ويأمره: «لا توصِ إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة... وسيأتي إلى شيعتي من يدعي المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كذاب مفترٍ» (الصدوق، كمال الدين، ص ٥١٦).

وعندما سُئل قبل موته عن خليفته، قال: «لله أمر هو بالغه» (الصدوق، كمال الدين، ص ٤٣٣) و بوفاته انتهت السفارة الخاصة وبدأت الغيبة الكبرى.